الجزء الثالث عشر
ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة
استهلت والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس وقد قسم السور بين أولاده وأمرائه وهو يعمل فيه بنفسه ويحمل الحجر بين القربوسيين وبينه والناس يقتدون بهم والفقهاء والقراء يعملون والفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان وما والاها لايتجاسرون أن يقربوا البلد من الحرس واليزك الذين حول القدس إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون ولكيد الإسلام مجمعون وهم والحرس تارة يغلبون وتارة يغلبون وتارة ينهبون وتارة ينهبون وفي ربيع الآخر
وصل إلى السلطان الأمير سيف الدين المشطوب من الأسر وكان نائبا على عكا حين أخذت فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار فأعطاه السلطان شيئا كثيرا منها واستنابه على مدينة نابلس فتوفى بها في شوال من هذه السنة وفي ربيع الآخر قتل المركيس صاحب صور لعنه الله أرسل إليه ملك الانكليز اثنين من الفداوية فقتلوه أظهرا التنصر ولزما الكنيسة حتى ظفرا به فقتلاه وقتلا أيضا فاستناب ملك الإنكليز عليها ابن أخيه بلام الكندهر وهو ابن أخت ملك الافرنسيين لأبيه فهما خالاه ولما صار إلى صور بنى بزوجه المركيس بعد موته بليلة واحدة وهي حبلي أيضا وذلك لشدة العداوة التي كانت بين الانكليز وبينه وقد كان السلطان صلاح الدين يبغضهما ولكن المركيس كان قد صانعه بعض شيء فلم يهن عليه قتله وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها وقتلوا خلقا كثيرا من أهلها وأسروا طائفة من الذرية فإنا لله وإنا إليه راجعون ثم أقبلوا جملة نحو القدس فبرز إليهم السلطان في حزب الإيمان فلما تراأي الجمعان نكص حزب الشيطان راجعين فرارا من القتال والنزال وعاد السلطان إلى القدس وقد رد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ثم إن ملك الانكليز لعنه الله وهو أكبر ملوك الفرنج ذلك الحين ظفر ببعض فلول المسلمين فكبسهم ليلا فقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم خمسمائة أسير وغنم منهم شيئا كثيرا من الأموال والجمال والخيل والبغال وكان جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير فتقوى الفرنج بذلك وساء ذلك السلطان مساءة عظيمة جدا وخاف من غائلة ذلك واستخدم الانكليز الجمالة على الجمال والخر بندية على البغال والسياس على الخيل وأقبل وقد قويت نفسه جدا وصمم على محاصرة القدس وأرسل إلى ملوك الفرنج الذين بالساحل فاستحضرهم ومن معهم من المقاتلة فتعبأ السلطان لهم وتهيأ وأكمل السور وعمر الخنادق ونصب المنجانيق وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه وأحضر السلطان أمراءه ليلة الجمعة تاسع عشر جمادي الآخرة أبا الهيجاء المبسمين والمشطوب والأسدية فاستشارهم فيما قد دهمه من هذا الأمر الفظيع الموجع المؤلم فأفاضوا في ذلك وأشاروا كل برأيه وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة كما كان الصحابة يفعلون فأجابوا إلى ذلك هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر فسكت القوم كأنما على رؤسهم الطير ثم قال الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم في ذممكم معلقة والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه عن العباد والبلاد غيركم فإن وليتم والعياذ بالله طوى البلاد وأهلك العباد وأخذ الأموال والأطفال والنساء وعبد الصليب في المساجد وعزل القرآن منها والصلاة وكان ذلك كله في ذممكم فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله وأكلتم بيت مال المسلمين لتدفعوا عنهم عدوهم وتنصروا ضعيفهم فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام
فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذي أعطيتنا وكبرتنا وعظمتنا وليس لنا إلا رقابنا ونحن بين يديك والله مايرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت فقال الجماعة مثل ما قال ففرح السلطان بذلك وطاب قلبه ومد لهم سماطا حافلا وانصرفوا من بين يديه على ذلك ثم بلغه بعد ذلك أن بعض الأمراء قال إنا نخاف أن يجري علينا في هذا البلد مثل ما جرى على أهل عكا ثم يأخذون بلاد الإسلام بلدا بلدا والمصلحة أن نلتقيهم بظاهر البلد فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم وإن تكن الأخرىسلم العسكر ومضى بحاله ويأخذون القدس وتحفظ بقية بلاد الإسلام بدون القدس مدة طويلة وبعثوا إلى السلطان يقولون له إن كنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصار الفرنج فكن أنت معنا أو بعض أهلك حتى يكون الجيش تحت أمرك فإن الأكراد لاتطيع الترك والترك لاتطيع الأكراد فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة وبات ليلته أجمع مهموما كئيبا يفكر فيما قالوا ثم انجلى الأمر واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيما عندهم نائبا عنه بالقدس وكان ذلك نهار الجمعة فلما حضر إلى صلاة الجمعة وأذن المؤذن للظهر قام فصلى ركعتين بين الأذانين وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالا عظيما وتضرع إلى ربه وتمسكن وسأله فيما بينه وبينه كشف هذه الضائقة العظيمة فلما كان يوم السبت من الغد جاءت الكتب من الحرس الذين حول البلد بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم فقال ملك الافرنسيين إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة في تخليص بيت المقدس ورده إلينا وقد بقى بيننا وبينه مرحلة فقال الانكليز إن هذا البلد شق علينا حصاره لأن المياه حوله قد عدمت وإلى أن يأتينا الماء من المشقة البعيدة يعطل الحصار ويتلف الجيش